من أسرار القرآن الكريم : تصريف أساليبه : تنوع صور التشبيه في القرآن الكريم

د .عبد الله محمد النقراط
قسم اللغة العربية
كلية الآداب -جامعة الفاتح

المقدمة :

الحمد لله على آلائه ، والصلاة و السلام على صفوة خلقه ، وأشرف رسله وأنبيائه ،محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ،وبعد .

فإن أسرار القرآن الكريم كثيرة ،ومن بين تلك الأسرار تصريف أساليبه بطرائق شتى و على صور مختلفة ،غاية في الروعة والبيان ؛ لتحقيق مقاصده السامية ،وأغراضه البلاغية العالية ،ولا غرو في ذلك ؛ لأنّه المعجزة الخالدة إلى قيام الساعة .

و لذلك أخصص هذا البحث للحديث عن تنوع صور التشبيه ، الذي يُعدّ من صور تصريف القول في القرآن الكريم ، وقد وردت هذه الصور كثيراً في كتاب الله العزيز .ومن تم أتكلّم في هذا البحث عن تلك الصور وتصريفها البياني معرفاً التشبيه، وضارباً لذلك أمثلة من القرآن الكريم ؛ لبيان تنوعها .

وقد تحدّث البلاغيون في التشبيه ، وعرفوه بتعاريف متقاربة، نكتفي بإيراد بعض منها ، إذ قال الرُّمَّاني : " **هو العقد على أنّ أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو**

عقل" (1).

وقال الخطيب القزويني هو : " **الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى**" (2) .

وهو عند ابن أبي الإصبع : " **إخراج الأغمض إلى الأظهر بالتشبيه مع حسن التأليف** " (3) .

وقد اعترض صاحب " **المعجزة الكبرى** " على تعريف الرمّاني للتشبيه ؛ لأنّ ذلك التعريف يضع المشبه والمشبه به في مرتبة واحدة ، وأنّه لا يرى ذلك ، ولا يراه علماء البلاغة الذين جاءوا بعد أبي الحسن الرمّاني المتوفى سنة (**386 هـ**) فإنّهم يعرفونه : بأنّه جعل أحد الشيئين في مقام الشيء الآخر ؛ لأمر مشترك بينهما ، وهو في ثانيهما أقوى مظهراً ، أو أبين مخبراً ، كما تقول : علي كالأسد في الشجاعة ، فهو في الأسد أظهر ، ولا يمكن أن يقال : أنّ أحدهما يسد مسد الآخر صورة أو معنى (4) .

ولنعد للرمّاني فيما يراه من بلاغة التشبيه ، إذ يقول : " **وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء ، وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، وذلك انّه يكسب الكلام بياناً عجيباً ، وهو على طبقات في الحسن ، فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بياناً فيهما ، والأظهر الذي يقع فيه البيان به على وجوه ، منها : إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، ومنها إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة ، ومنها إخراج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة ، فالأول نحو : تشبيه المعدوم بالغائب ، والثاني تشبيه البعث بعد الموت ، بالاستيقاظ بعد النوم ، والثالث تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب ، والرابع : تشبيه ضياء السراج بضياء النهار** "(5).

1- النكت في إعجاز القرآن ص 80 .

2- الإيضاح في علوم البلاغة 2/328 .

3 -بديع القرآن ص 58 .

4- ينظر المعجزة الكبرى القرآن ص 241 .

5- النكت في إعجاز القرآن ص 81 .

وتعقبه الإمام محمد ابوزهرة قائلا : " ولاشك أنّ هذه الوجوه لا تشمل كل أقسام المقسم ، فمن التشبيهات ما ليس بوجه من هذه الوجوه ، كتشبيه غير الواضح بالواضح ،كما ترى ذلك في كثير من الآيات القرآنية ، و كالتشبيه الذي يقصد به بيان ما أكنه – سبحانه – وما خلق و ما دبّر ، فهو تقريب بالمغيب عنّا إلى المعلوم لنا ، وما عند الله أعظم وأكبر ، وقد يكون التشبيه لتقريب المعنى الكلي من المعنى الجزئي ، أو لتصوير المعنى الكلي في بعض جزئياته ،كقوله تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للنّاس لعلهم يتفكرون** ﴾(1)

فإنّه كان عقد المشابهة بين المعنى الكلي ، وهو المعنى الجامع الذي يوضح به الحقائق بالأمثال التي ضربها و بيّنها للنّاس ، ومن ذلك الأمثال التي تضرب لتقريب أصل الخلق والتكوين من عقول المكلفين "(2) .

والتشبيه عند الرمّاني على وجهين :تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة ، فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب ,وتشبيه الحقيقة نحو :هذا الدينار كهذا الدينار ،فخذ أيهما شئت "(3).

وتقسيم الرمّاني للتشبيه ردّه محمد أبو زهرة قائلاً :"**إنّ ذلك التقسيم :يجوز أن يكون بالنسبة لكلام النّاس ، أمّا القرآن الكريم ,فإنّ كل تشبيهاته فيها البلاغة ،وفيها الحقيقة ،والمثل الذي ذكره و إن كان في أعلى درجات البلاغة هو الحقيقة ، فان التشبيه صادق في الواقع ؛لأن أعمال الذين كفروا هي السراب الذي ليس له واقع ,ولكنّه وهم يسيطر بإبصار ضال .**

ولذلك أنّ الوجهين محققان في كتاب الله – تعالى –ففي التشبيه القرآني الحقيقة الصادقة والبلاغة القائمة المعجزة "(4).

1-سورة الحشر الآية 21 .

2- المعجزة الكبرى ص 242 بتصرف .

3-النكت في إعجاز القران ص81 .

4-المعجزة الكبرى ص 243 .

والذي نميل إليه ما ذكره أبو زهرة من أنَّ التشبيه في القرآن الكريم فيه البلاغة ،وفيه الحقيقة ،وذلك لأنَّ كل كلمة في القرآن ،بل كل حرف هو حقيقة ،وفي نفس الوقت فهو في أعلى درجات البلاغة ،وسنتبين ذلك من صور التشبيه و تصريفها البياني ،من خلال الأمثلة التي نتعرض لدراستها .

عرفنا فيما سبق أنَّ علماء البلاغة قد عرّفوا التشبيه ،وبينوا أقسامه ،وساقوا لذلك بعض الأمثلة ، والذي يهمنا في هذا الشأن هو أنَّ للتشبيه صوراً بيانية متعددة ،وهو ما نطلق عليه صور التصريف ،و نعني بذلك التنوع البياني من آية لأخرى ، وقد فات هؤلاء العلماء أن ينبهوا لهذه الصور من التصريف وسمته الواضحة في القران كل الوضوح.

لذلك أسوق أمثلة لهذه الصور على سبيل المثال لا الحصر .

إذ يتصرف التشبيه فيأتي للإنكار و التوبيخ ،كما في قوله تعالى : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرّون** ﴾(1) .

جاءت هذه الآية عقب تعداد نعم الله على عباده ،التي لا تعد ولا تحص ،مظهرة إنكار المولى – سبحانه وتعالى – على الذين يعبدون الأوثان ، والذين يسوّون بين الخالق ومخلوقاته ، وفي نفس الوقت مبينة أنّه لا يمكن التسوية ، وتشبيه المولى بمخلوقاته التي خلقها ، والتي أنعم عليها تلك النعم العظيمة، فهو – سبحانه – الخالق العظيم .

قال الخطيب : " فإنَّ مقتضى الظاهر العكسُ ؛ لأنَّ الخطاب للذين عبدوا الأوثان ، وسمّوها آلهة ، تشبيهاً بالله – سبحانه وتعالى – فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فَخُولف في خطابهم ؛لأنَّهم بالغوا في عبادتها ، وغَلَوا حتى صارت عندهم أصلاً في العبادة ، والخالق – سبحانه – فرعاً ، فجاء الإنكار على وَفْق ذلك .

ونقل عن السَّكّاكي قوله :عندي أنَّ المراد بمن (**لا يخلق**) الحيُّ العالمُ القادرُ من الخلق ،تعريضاً بإنكار تشبيه الأصنام بالله – عزّ وجلّ – ، وقوله : ﴿ **أفلا تَذَكَّرون** ﴾ تنبيهُ

1- سورة النحل ,الآية 17.

توبيخ عليه "(1) و قال أبو السعود : " وهو تبكيت للكفرة و إبطال لإشراكهم و عبادتهم للأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه – سبحانه وتعالى – بعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاءً ظاهراً ،وتعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الإنكار إلى توهم المشابهة المذكورة على ما فصُل من الأمور العظيمة الظاهرة الاختصاص به –تعالى – المعلومة كذلك فيما بينهم "(2) .

وكما في قوله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطان من المسِّ ذلك بأنّهم قالوا إنّما البيع مثل الربا وأحلّ الله البيع وحرّم الربا فمن جاءهُ موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(3).

فبعد أن بيّن – سبحانه وتعالى – حال الذين يأكلون الربا حكى تشبيههم البيع بالربا، إذ إنّهم يسوون بينهما في الحل ،لذلك أعقبه ببيان حلّ البيع ،وتحريم الربا .

قال الخطيب : " فإنّ مُقتضى الظاهر أن يُقال :إنّما الربا مثل البيع ،إذ الكلام في الربا لا في البيع ،فخالفوا بجعلهم الربا في الحلّ أقوى حالاً من البيع، وأعرف به " (4) .

وقال أبو السعود : " إنكار من جهة الله – تعالى – لتسويتهم وإبطال للقياس لوقوعه في مقابلة النص ،مع ما أشير إليهم من عدم الاشتراك في المناط "(5) .

"**إن** هذه الآية صورت المرابي حيث يقوم يوم القيامة ،فإنه يتخبّط في قيامه ؛لأنّ الربا يربو في بطونهم حتى يتلفها ،وفي هذا إهانة لهم وتشهير بهم . والآية في دلالتها الظاهرة لا تطبيق بتصوير المرابي في الدنيا أيضاً "(6) .

1- الإيضاح في علوم البلاغة 2/362 قال الطيبي في التبيان ص 355-356 : " زيادة للإنكار كقولهم في التوبيخ السلطان كالسوقي ،لمن قال بتشبيه ،أو المراد بمن لا يخلق العقلاء تعويضاً على تشبيه الأصنام بالله و يكون قوله :(أفلا تذّكرون) تنبيهاً على مكان التعريض , وربما يعود الغرض إلى بيان الاهتمام بالمشبه به , ويسمى هذا إظهاراً للمطلوب ,و لا يحسن في مقام الطمع في تسني المطلوب " .

2- إرشاد العقل السليم 5/104 . 3- سورة البقرة , الآية 274 .

4- الإيضاح في علوم البلاغة 2\362 . وينظر التبيان في البيان ص355 .

5- إرشاد العقل السليم 1\266 . 6- التصوير البياني ص 96.

ومن صور التشبيه ما يكون لإظهار الأمر، وبيان حقيقته ،كما في قوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلمَّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم و تركهم في ظلمات لا يبصرون** ﴾(1) .

إذ شبه المولى – عزّ وجلّ – حال المنافقين بحال مستوقد النار الذي يستضيء بنورها ، ثمَّ تذهب فجأة ، ولا يستفيد منها ، فذلك صورة المنافقين الذين إذا لقوا الذين آمنوا أدّعوا الإيمان ، وإذا لقوا الكافرين قالوا لهم : إنَّا منكم .

فقد أظهر في هذا البيان أمرهم ,وبين حقيقتهم حتى يكون الرسول ﷺ و المؤمنون على حذر منهم .

إن القرآن الكريم دقيق في اختيار ألفاظه و معانيه ، إذ يضع اللفظ المناسب في محله الأليق به ، الأقوى دلالة على المعنى المراد ، ولذلك جاء التعبير بلفظ (**استوقد**) دون (**أوقد**) كما قيل : أبلغ في تصوير المثل ؛ ليدلّ على حقيقة حال الممثل له ، فليس معنى (**استوقد**) رديفاً لمعنى (**أوقد**) متحداً معه في المعنى ، وإنما معنى : استوقد أوسع و أدقٌّ في دلالته على المعنى المقصود ، الذي وضع في مكانه ليدلّ عليه ؛ لأنّ : استوقد يُشعر بالإعداد و الأهمية ، وقوة الإيقاد مما ينشأ عنه عموم الإضاءة من سائر الجوانب ، وعلماء اللغة يقولون : إنَّ زيادة المبني تدل على زيادة المعنى ، وهذا لازم في القرآن مطّرد ، فلن تكون فيه ، كلمة بلغت في البناء منتهى صيغتها مساوية في أداء المعنى لكلمة أخرى من مادتها لم تقع فيه ، وقصّرت في بنائها عن صيغة أختها ، على أنّ حذاق العلماء يرون أن الترادف مطلقاً معدوم في القران . (2)

إن التناسب بين الصورتين والدقة في إحكام كلّ منهما ، حيث التطابق بين الأجزاء ، وإن المغزى واحد ، كما أن النهاية واحدة ، تضع الصورة على غاية من الدقة والقوة .

وإن الصورة لتزداد تناسقاً بحسن العرض ، وجمال الأسلوب اللّذين تصاغ بهما

1- سورة البقرة , الآية 16 .

2-القرآن العظيم هدايته و إعجازه ص 177 .

كالحور يقُلْ ، وضرب الأمثلة بالمقايسة ، وحسن النسق بين أجزاء الآية مع تعقيب يرتبط عضوياً بالمعنى العام للآية .

إن قوّة التناسق بين الصور التي يعمد إليها القرآن تتناول تفصيلاً في إحدى الصورتين ، وإيجازاً مستوفياً لأبعاد الصور في الصورة الأولى .(1)

وفي هذا المثل تصوير بارع لحال المنافقين يكشف عن خيبة قلوبهم المريضة ، وعمى بصائرهم ، وجمود أحاسيسهم ، و خمود شعورهم ، فهم صمٌّ لا يسمعون نداء الحق ، وإذا سمعوه اساحوا عنه معرضين ، بكم لا ينطقون الحقّ ، و إذا نطقوه أصابهم عيّ البلَه ، وحُصروا فلم يستطيعوا أن يبينوا عن ذات أنفسهم ، وهم عمي لا يبصرون طريق الحقّ ، فهم في غيّهم سادرون ، لا يرجعون عن ضلالهم .(2)

ومنه ما يكون للتسوية بين شيئين كما في قوله تعالى : ﴿ **إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظنَّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكّرون** ﴾(3) ، ففي الآية الكريمة شبه المولى – سبحانه وتعالى – الحياة الدنيا بماء أنزله الله – عزّ و جلّ – من السماء فاختلط النبات بعضه ببعض ، و أخرجت الأرض الزروع و الأشجار ،ثم تصبح حصيداً ,فذلك الحياة الدنيا ، إذ شبهها بما هو مألوف لدى الإنسان و يراه في كل حين ؛لتكون صورة الحياة الدنيا عنده أكثر وضوحاً ، و يعمل فيها ما يرضي الله ،تلك هي بلاغة القرآن في تحقيق أغراضه ،و بيانها .

قال الإمام الطيبي في التبيان : " فإنها تسع جمل متداخلة شبهت حالها العجيبة الشأن في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها ، واغترار الناس بها بحال ماء نزل من السماء و أنبت أنواع العشب ، وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذ أخذت الثياب الفاخرة حتى إذا

1–الإعجاز الفني في القرآن ص 199–200 وينظر بلاغه تصريف القول في القرآن الكريم 2/1046–1047 .

2–القرآن العظيم هدايته و إعجازه ص 178 .

3–سورة يونس , الآية 24

طمع فيها أهلها و ظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة فكان كأن لم تغن بالأمس "(1) .

وقد يتصرف التشبيه لبيان أنَّ الأمر خلاف مايعتقده النَّاس ، كما في قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب** ﴾(2) .

بيَّنت الآية الكريمة أنَّ أعمال الذين كفروا التي هي من أعمال البر ، مثل السراب : "وهو ما يرى في الفلوات من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة ، فيظن أنَّه ماء يسرب أي يجرى ،كائن في قاع الأرض ، وهى الأرض المنبسطة المستوية "(3) .

جاء في مختار الصحاح : " السَّرابُ : الذي تراه نصف النهار كأنَّه ماءً "(4) .

قال ابن قتيبة : " هذا مثل ضربة الله للكافرين الذين يحسبون أن أعمالهم تنجيهم ،فمثله بالسراب يحسبه العطشان من البُعدْ ماءً يرويه ،فإذا وصل إليه لم يجده ، فكذلك الكافر يحسب ما قدم من عمله نافعه ، حتى إذا جاءه ، أي مات لم يجد عمله شيئاً ،لأن الله عز وجل – قد أبطله بالكفر و محقه "(5) .

وقد صوَّر صاحب "**الإيضاح** "هذا التشبيه بقوله : " شبه ما يعمله من لا يقرن الإيمان المعتبر بالأعمال التي يَحْسَبُها تنفعه عند الله و تنجيه من عذابه ، ثمَّ يخيبُ في العاقبة أمله :ويلَقى خلاف ما قدّر بسراب يراه الكافر بالسّاهرة ، وقد غلبه عطشُ يوم القيامة ، فيحسَبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه ، و يجد زبانية الله عنده ، فيأخذونه فيعْتِلونه إلى جهنّم ، فيسقونه الجحيم و الغَسّاق "(6) .

وقد يتصرف لإظهار القدرة الإلهية ، مبالغة في الرد على من أنكر البعث والجزاء ،

1- التبيان ص 357 .

2- سورة النور ,الآية 38 .

3- إرشاد العقل السليم 6/180 .

4- مختار الصحاح ص 148 ,مادة : سرب .

5- تأويل مشكل القرآن ص 329 .

6- الإيضاح في علوم البلاغة 2/352-353 .

كما في قوله تعالى :﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾(1) .

ففي الآية الأولى شبَّه النّاس يوم القيامة في الضعف والهوان بالفراش، وفي الآية الثانية شبَّه الجبال مع اختصاصها بالصلابة والقوة بأضعف ما يكون، وأرخاه، وهو الصوف.

قال الزمخشري: " شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار...

وشبه الجبال بالعهن، وهو الصوف المصبغ ألوانها، لأنَّها ألوان ، وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها"(2) .

وقد يتصرف فيأتي بمعنى الارتفاع في الصورة ، إظهاراً لقدرته – تعالى– كما في قوله تعالى : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنَّه ظلّة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾(3) .

وقد علّق الرمّاني على هذه الآية قائلاً: "وهذا بيان قد أخرج ما لم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة ، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة ، وفيه أعظم الآيات لمن فكر في مقدورات الله – تعالى– عند مشاهدته لذلك، أولعلمه به ، ليطلب الفوز من قبله ، ونيل المنافع بطاعته"(4) .

وتعقبه صاحب "**المعجزة الكبرى**"إذ قال: " كأن التشبيه كان لغرض تقريب المعنى، وتصوير الغريب كأنه قريب ، وذلك في تشبيه الجبل مرتفعا كأنَّه ظلّة ، وهذا المعنى في ذاته صحيح ، ولكنه فيما أعتقد لا يصور معنى التشبيه من كل الوجوه ؛ لأنَّ رفع الجبل كان لتوثيق الميثاق عليهم ، وحملهم على الأخذ به ، وإثبات قدرة الله– تعالى– وإلقاء المهابة في قلوبهم ، فالتشبه بالظلّة للدلالة على الإحاطة وتصويره لهم ، كأنه نازل بهم ،

1– سورة القارعة , الآية 3-4 .

2– الكشاف 4/279 ,وجاء في مختار لصحاح :العِهْنُ : الصُّوفُ (ص 217 مادة : عهن) .

3– سورة الأعراف ,الآية 171 .

4– النكت في إعجاز القرآن ص 83 .

واقع عليهم؛ ليعرفوا أنَّ ميثاق الله له رهبته ، وأنَّ عليهم طاعته، ولذلك قال – سبحانه – بعد أن رأوا الجبل مرفوعاً عليهم وأنّه محيط بهم ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة** ﴾ أي بعزم شديد "(1).

والذي يظهر لنا في صورة هذا التشبيه ، تخويفاً لبني إسرائيل قوم موسى – عليه السلام – وذلك لعدم قبولهم أحكام التوراة ، وبياناً لقدرة الله – تعالى – إذ شبه المولى – سبحانه وتعالى – اقتلاع الجبل من مكانه ورفعه عليهم ، بالسقيفة ، وفى هذا البيان العجيب قدرة عظيمة وحكمة بالغة .

وقد يتصرف فيأتي للعبرة من جهة قدرة الله – تعالى – كما في قوله تعالى : ﴿ **وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام** ﴾(2) .

إذ إنَّه في هذه الصورة البيانية شبه السفن بالجبال في ارتفاعها وضخامتها ، وذلك لبيان قدرة الله ، وامتنانه على عباده بنعمه عليهم .

ومنه ما يكون للإنكار كما في قوله تعالى : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾(3) .

قال ابن أبي الإصبع : "وهذا إنكار على من جعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله واليوم الآخر ، وفى ذلك أو في دلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان ، وأنَّه لا يُسَاوىَ به مخلوق "(4) .

وقد يتصرف فيأتي للمقارنة بين شيئين حسيسين كما في قوله تعالى : ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه**

1- المعجزة الكبرى ص 246-247 .

2- سورة الرحمن , الآية 22 .

3- سورة التوبة , الآية 19 .

4- بديع القرآن ص59 .

يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكّرون﴾(1).

إذ مثل الكافر المكذّب بالله -تعالى- بالكلب في خِسَّتِه ؛ لأنّه لم ينتفع بعقله ، فلا فرق بينه ، وبين الكلب في الصفات الذّميمة .

قال الرّمّاني:" وقد اجتمعا في ترك الطاعة على وجه من وجوه التدبير، وفي التّخسيس ،فالكلب لا يطيعك في ترك اللهث حملت عليه أو تركته ، وكذلك الكافر لا يطبع بالإيمان على رفق ولا على عُنْف ، وهذا يدل على حكمة الله – سبحانه وتعالى – في أنّه لا يمنع اللطف "(2) .

وقد يتصرف فيأتي للزجر عن دعاء غير الله -عزّ وجلّ – الذي يملك النّفع والضر ،كما في قوله تعالى : ﴿ **له دعوة الحقّ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال﴾(3).**

ففي الآية الكريمة شبه الذين يدعون من دون الله ما لا ينفع ولا يضر في عدم استجابتها على التأبيد ,بإنسان باسط كفيه لتلقي الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه أبداً فكذلك الأصنام التي يدعونها من دون الله -تعالى – مثل الذي بسط كفيه إلى الماء ، وهو في حاجة شديدة إليه ، ولكنه لم يصل إليه .

يشبه الله في هذه الآية عبّاد الوثن حينما يدعون آلهتهم ،ولا يرجع هذا الدعاء بفائدة بمن يبسط كفيه للماء ليشرب فلا يصل الماء إلى فمه ما دامت كفّاه مبسوطتان (3) وهكذا فإنّ في هذا البيان العجيب تصويراً دقيقاً لحالة الأصنام ، وحال من يدعونها ، وفي هذا كله إظهار لقدرة الله – تعالى – وأنّه وحده المستحق للتوحيد والعبادة .

وقد يتصرف للدلالة على عظيم القدرة ، والتخويف من تعجيل العقوبة ،كما في قوله

1- سورة الأعراف , الآية 176 .

2- النكت في إعجاز القرآن ص 82. 2-سورة الرعد ,الآية15 .

3- البيان في ضوء أساليب القرآن ص 43 .

تعالى : ﴿ **إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع النّاس كأنّهم أعجاز نخل منقعر** ﴾(1) .

وقد علق على هذه الآية صاحب " المعجزة الكبرى " بقوله :" إنّما المقصود من التشبيه فيما نحسب تصوير عذاب الله – تعالى – فالله – تعالى – أرسل عليهم ريحاً شديدة البرد ، في يوم كله بأس وشدة ، وهو كالنحس عليهم ، طويل في آلامه ، ومستمر فيها ولو كان في الزمن قصيراً ، ثمّ يصور الله – تعالى – نزع المشركين من غرورهم واعتزازهم بما لهم ، وينزعون بعنف شديد لا يقوون فيه على الامتناع ولا على الإصرار على البقاء ، كما تنزع مؤخرات وجذور نخل غاصت جذوره في أعماق الأرض .هذا بريق التشبيه المرعد الذي يصوّر ما ينزل بالمشركين الذين طغوا في البلاد و أكثروا فيها الفساد "(2) .

وقد يتصرف لبيان صفات يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿ **فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدِّهان** ﴾(3) .

ففي هذه الآية الكريمة شبه المولى –عزّ وجلّ – انصداع السماء يوم القيامة بالوردة الحمراء ، إظهاراً لقدرته –تعالى – وحكمته البالغة .

وقد يتصرف لاحتقار الدنيا والتحذير من الاغترار بها ، والسكون إليها ، كما في قوله تعالى : ﴿ **اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثمّ يهيج فتراه مصفراً ثمّ يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور** ﴾(4).

بعد ما بين حال الفريقين : الذين آمنوا بالله ورسله ، والذين كفروا وكذّبوا بآيات

1- سورة القمر ,الآية 19-20.

2- المعجزة الكبرى ص 248 .

3- سورة الرحمن ، الآية 36 .

4- سورة الحديد الآية 19 .

الله في الآخرة ، شرح حال الحياة الدنيا التي اطمأن بها الفريق الثاني ، وأشـــير إلى أنّها من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقـــلاء ، فضلاً عن الاطمئنان بها ، وأنّها مع ذلك سريعة الزوال ، وشيكة الاضمحلال .

ولذلك شبهها في زينتها وتفاخر الناس فيما بينهم بالأموال والأولاد بـــالغيث الذي يعجب الكفار ، النبات الحاصل به ثمّ يجف بعد خضرته ونضارته ، ويتغير لونّه ، ثمّ يكون هشيماً متكسراً .

وبعد ما بيّن حقارة الدنيا تزهيداً فيها، وتنفيراً عن العكوف عليها ، أشـــير إلى فخامة شأن الآخرة ,وعظم ما فيها من اللذات والآلم ، ترغيباً في تحصيل نعيمها المقيم ، وتحذيراً من عذابها الأليم(1) .

بيّن الرازي : أن المقصود من هذه الآية تحقير حال الدنيا ، وتعظيم حال الآخرة ذلك أن الدنيا لعب ولهو, وزينة وتفاخر ، ولا شك أن هذه الأشياء أمور محقّرة ، وأما الآخرة فهي عذاب شديد دائم ، أو رضوان من الله على سبيل الدوام ، ولا شك أن ذلك عظيم .

ثم إنه – تعالى – وصف الدنيا بأمور ، أولها: أنها لعب : وهو فعل الصبيان ، وثانيها : أنها لهو ، وهو فعل الشبّان ، وثالثها : أنها زينة ، وهو دأب النساء(2) .

وقد يكون للتشويق في الجنة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **سابقـــوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها كعرض السماء والأرض أعدّت للذين آمنوا بالله ورســـله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾(3) .

فبعد ما أمر بالمسابقة إلى مغفرته – تعالى – شوّق العباد في الجنة فشبـــهها في عرضها بالسماء والأرض ، وفي ذلك تصوير لبـــيان أحـــد صفاتها وتقريبـــها إلى الأذهان؛ لأنّ الإنسان يشاهد جزءاً من السماء والأرض ، ولذلك تتكوّن عنده صورة لتلك الجنة التي أعدّها الله للذين آمنوا بالله ورسوله .

1- ينظر إرشاد العقل السليم 8/210 - 211 .

2- تفسير الرازي 29/233-234.

3- سورة الحديد , الآية 20 .

وذلك كما قال محمد أبو زهرة : " وترى من هذا أنّ المراد السعة في النعمة ، وأنّ السعة في النعمة كالسعة في المكان ، وهي تدل عليه ، والمراد من الكلام كله الحث على طلب مغفرة الله – تعالى – وأنّ الكلام كله يصورّ الجنّة بأنّها خير الوجود ، وأنّها أوسع ، وأنّه إذا كانت النار تسع كل المجرمين ؛ لأنّ لها سبعة أبواب لكل باب جزء مقسوم ، فالجنة تسع المتقين الأبرار ؛ لأنّها واسعة عريضة، كعرض السماء والأرض " (1) .

وقد يتصرف فيشبه الحركات بالحركات ، والسكون بالسكون ، دلالة على قدرة الله – عزّ وجلّ – على البعث والجزاء ، وإتقانه المحكم ، كما في قوله تعالى :﴿ **يكاد البرق يخطف أبصارهم كلّما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إنّ الله على كل شيء قدير**﴾(2) .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنا فاعلين** ﴾(3).

وقوله تعالى :﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب صنع الله الذي أتقن كلّ شيء أنه خبير بما تفعلون** ﴾(4) .

ففي الآية الأولى شبه القرآن الكريم ، وهو صادق في حججه ، وبراهينه ، وآياته الساطعة التي تبهرهم بالبرق يخطف الأبصار ، وهو متحرك ، ويحمل هذا التشبيه الزّجر والوعيد لمن لم يهتد بهديه ويترسم خطاه .

ويدل على ذلك ختمها بقوله تعالى : **إنّ الله على كل شئ قدير** ﴾ . قال ابن عطية : " وخصّ هنا صفته التي هي القدرة بالذكر ؛ لأنّه قد ذكر فعلاً مضمنه الوعيد والإخافة ، فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك "(5) .

وقد تقدم قبلها المثل الثاني للمنافقين ، وهو قوله تعالى : ﴿ **أو كصيّب من السماء فيه**

1- المعجزة الكبرى ص 250 .
2- سورة البقرة , الآية 18-19 .
3- سورة الأنبياء , الآية 103 .
4- سورة النمل , الآية 90 .
5- المحرر الوجيز 1/104 .

ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾(1) .

قال صاحب " **الكشاف** " : " وهذا التمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصّيب ، وما هم فيه من غاية التحيّر والجهل بما يأتون وما يذرون "(2) .

وقال أبو السعود : " تمثيل لحالهم إثر تمثيل ليعمّ البيان منها كلّ دقيق وجليل ، ويوفي حقّها من التفظيع والتهويل ، فإنّ تفنُّنهم في فنون الكفر والضلال ، وتنقُّلهم فيها من حال إلى حال ، حقيق بأن يضرب في شأنه الأمثال ويرخى في حلبته أعنّة المقال ، ويمّد لشرحه أطناب الإطناب، ويُعقد لأجله فصول و أبواب "(3) .

ويرى أبو حيّان: أن أوهنا للتفصيل ، وأنّ التمثيل أتى كاشفاً لحالهم بعد كشف الأوّل ، وإنّما قصد بذلك التفصيل والإسهاب بحال المنافق، و شبّهه في التمثيل الأول بمستوقد النار وإظهار الإيمان بالإضاءة وانقطاع جدواه بذهاب النور ، وشبّه في الثاني دين الإسلام بالصيّب ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ،وما يصيبهم من الإفزاع والفتن من جهة المسلمين بالصواعق .(4)

وذهب الخروبيّ إلي أنّه مثّل حال المنافقين بالمستوقد النار ، أوالصيّب ؛لما في ذلك من المناسبة بينه وبين أحوال المنافقين ,إذ المنافقون ظنّوا أنّ ما أظهره من الإيمان ، وأخفوه من الكفر نافع لهم ، وهو ضرر عظيم ,فظنّوا انتفاعهم بما هو ضرر عليهم كالمستوقد ناراً على الحالة المذكورة في الآية ، فهو يظنّ انتفاعه بها وليس له فيها نفع ، وكذلك الصيب الذي فيه ظلمات ورعد وبرق،كما ذكر في الآية، ظنّ الانتفاع به ،فإذا هو غير ذلك(5).

وعدّ الرازي المثل الثاني للمنافقين ؛ إذ شبّههم في حيرتهم وجهلهم بالدين بهؤلاء

1- سورة البقرة الآية 18 .

2- الكشاف 1/219 .

3-إرشاد العقد السليم 1/52 .

4-البحر المحيط 1/221.

5-رياض الأزهار وكنز الأسرار ص 78 .

الذين وصفهم ، إذ كانوا لا يرون طريقاً و لا يهتدون ، ثم قدم سؤالاً أيُّ التمثيلين ابلغ ؟ و أجاب عنه بقـــوله : " التمثيل الثاني ؛ لأنه أدلُّ على فرط الحيرة ، وشـــدةّ الأغاليط ، ولذلك تراهم يتدحرجون في نحو هذا من الأهون إلي الأغلظ ".(1)

وواقفة أبو حيان إذ قال : " والتمثيل الثاني : أبلغ ؛ لأنه دلّ على فرط الحيرة ، و شدة الأمر ، لذلك أخّر فصار ارتقاء من الأهون إلى الأغلظ ".(2)

ويرى آخر : أنّه شبّه المطر المنّزل من السماء بالقرآن ، وشبّه ما فيه من الظلمات بما في القرآن من الابتلاء و الاختبار ، وشبّه ما فيه من الرعد بما في القرآن من الزجر وشبّه ما فيه من البرق بما في القرآن من البيان ، و شبّه ما فيه من الصواعق ، بما في القـــرآن من الوعيد آجلا ، والدعاء إلى الجهاد عاجلاً (3).

وفي الآية الثانية شبه طوي السماء بطوي السجل ؛للدلالة على قدرة الله في البـــعث والجزاء ، ويدل عليه ما قبلها وما بعدها ، فما قبلها قـــال تعالى : ﴿ **هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾(4) .

وما بعدها فقد شبه الإعادة ببدء الخلق الأول ، فقال تعالى : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنَّا كنّا فاعلين** ﴾(5) .

قال ابن عطية :" يحتمل معنيين :أحدهما أن يكون خبراً عن البعث ، أي كما اخترعنا الخلق أولاً على غير مثال ،كذلك ننشئهم تارة أخرى ، فنبعثهم من القبـــور ، والثاني أن يكون خبراً عن أن كل شخص يبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها إلي الدنيا "(6) .

وفي الآية الثالثة : شبه سرعة سير الجبال مع سكون بسرعة سير السحاب مع سكون

1- تفسير الرازي 84/2-85 .

2- البحر المحيط 1/221 .

3- أضواء على متشابهات القرآن ص 28 .

4- سورة الأنبياء الآية 102 .

5- سورة الأنبياء 103 .

6- المحرر الوجيز 4/ 102 .

أيضاً . فصورّ بذلك حال النّاس يوم القيامة ، وفزعهم من هول هذا اليوم و عظمته ، بحال من يرى الجبال ويظنّها ساكنة ، ومع ذلك فهي تتحرك .

"والحال أنّها تمرُّ مَرَّ السّحاب التي تسيِّرها الريّاح سيراً حثيثاً ، وذلك أن الأجرام العظام إذا تحركت نحو سمت لا تكاد تتبين حركتها "(1) .

وقد يتصرف لبيان الجهل , كما في قوله تعالى : ﴿ **مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثمَّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾(2) .

فقد شبه المولى – سبحانه وتعالى – حال الذين علموا التوراة ، وكلفوا العمل بها ، إذ لم يعملوا بما فيها من الآيات الدالة على نبوة رسول الله ﷺ بحال الحمار الذي يحمل كتبا من العلم يتعب بحملها ، ولا ينتفع بها ، وفي ذلك أبشع تصوير لحال اليهود الذين كذّبوا بما في التوراة من الآيات الشاهدة بصحة نبوة محمد ﷺ وفي هذا أيضاً تجهيل لهم ، إذ إنهم يعلمون الحقيقة وينكرونها عناداً وتكبّراً .

ذكر الرازي أن الله تعالى – ضرب هذا المثل للذين أعرضوا عن العمل بالتوراة ،فشبهوا بالحمار ؛ لأنهم لو عملوا بمقتضاها لانتفعوا بها ، و لم يوردوا تلك الشبهة ، وذلك لأن فيها نعث الرسول – عليه السلام – والبشارة بمقدمة والدخول في دينه .

وقد شبّه اليهود إذ لم ينتفعوا بما في التوراة وهى دالّة على الإيمان بمحمد – صلى الله عليه وسلم – بالحمار الذي يحمل الكتب العلمية ولا يدري ما فيها .

والمراد بالآيات هاهنا الآيات الدالّة على صحة نبّوة محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو قول ابن عباس ومقاتل . (3)

وذكر غيره أن الله – تعالى – شبه في هذه الآية اليهود الذين أتوا التوراة وكلّفوا العمل

1- إرشاد العقل السليم 6/ 304 .

2- سورة الجمعة ,الآية 5 .

3- تفسير الرازي 30/ 5 .

بمحتواها فأعرضوا عنها ، و لم ينتفعوا بها ، واستنكروا نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – وقد أمروا فيها بتصديقه و اتّباعه ، شبههم بالحمار الذي يحمل على ظهره أحمالاً من كتب لا ينتفع بها ، ولا يعقل ما فيها ، وليس له إلا ثقل الحمار من غير فائدة ، فحملهم التوراة أمر معنوي ، المراد به القيام بما فيها ، وليس حملاً حسيًّا كالحمل على العاتق ، فهو من تشبيه المعنويّ بالحسيّ . (1)

يتبين لنا مما سبق أن صور التشبيه تتصرف في القرآن الكريم بطرائق شتى وعلى صور مختلفة في غاية الروعة والبيان ؛ لتحقيق مقاصده العالية ، وبيانه البديع .

وأنّ هذه الصور لا تكرار فيها ، ولا بينها ، وإنما هو التنويع العجيب ، الذي يجلي الحقائق الخفية فيجعلها ظاهرة جليّة ، وذلك بتقريبها إلى الأذهان في أبلغ صورة ، وأدلّ عبارة على المعنى المقصود .

وأنها في غاية البيان والإيضاح ، فهي تبرز خفيّات المعاني وتكشفها ، وتبين الحقائق ، فهي فنّ من الأسلوب البياني دقيق المسلك ,يتميز بالدّقة و الواقعية ، والتناسق بين الصور ،واختيار الألفاظ المعبرة عن معانيها أدقّ تعبير .(2)

مصادر البحث ومراجعه :

1- القرآن الكريم ، برواية الإمام قالون والرسم العثماني ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ليبيا .

2- إرشاد العقل السليم لأبي السعود ، دار إحياء التراث العربي بيروت ،ط الرابعة 1414 هـ /1994م.

3- أضواء على متشابهات القرآن ،الشيخ خليل ياسين ، مكتبة الهلال بيروت ، ط الثانية 1980م .

4- الإعجاز الفنّي في القرآن ، عمر السّلامي ، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم عبد

1- القرآن والصورة البيانية ص 53-54 وينظر البيان في ضوء أساليب القرآن ص 77 .

2- ينضر بلاغة القول في القرآن الكريم 2/1047 وما بعدها .

الله تونس 1980 .

5- الإيضاح في علوم البلاغة للإمام الخطيب القزويني ، شرح وتعليق وتنقيح : محمد عبد المنعم خفاجي ، الشركة العالمية للكتاب بيروت 1989 م .

6-بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري ، تقديم وتحقيق : حفني محمد شرف ، نهضة مصر للطباعة و النشر ، د ت .

7-بلاغة تصريف القول في القران الكريم ، دلالة التصريف القرآني أولى من دلالة ولفظ التكرار ، الدكتور:عبد الله محمد النقراط ، دار قتيبة دمشق ، ط الأولى 1423 هـ / 2002 ف.

8- البيان في ضوء أساليب القران ، عبد الفتاح لاشين ، دار الجيل بيروت ، دت .

9- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، شرح ونشر السيد احمد صقر ، المكتبة العلمية بيروت ، ط الثالثة 1410 هـ /1981م .

10 - التبيان في البيان للإمام الطيبي, تحقيق و دراسة : د. عبد الستار حسين زمّوط ، دار الجيل بيروت , ط الأولى 1416 هـ / 1996 م.

11- التصوير البياني ,محمد أبو موسى , دار التضامن للطباعة القاهرة , ط الثانية 1400هـ /1980 م .

12-تفسير البحر المحيط لأبي حيان , دراسة و تحقيق عادل أحمد عبد الموجود و آخرين , دار الكتب العلمية ,ط الأولى 1413هـ/ 1993م .

13-تفسير فخر الذين الرازي ,دار الفكر بيروت , ط 1401هـ /1981م .

14-رياض الأزهار و كنز الأسرار للخروبي, مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 22362 حقق الجزء الأول منه الدكتور : محمد حسين القذافي, نال به درجة الدكتوراه من المغرب و قد شرعت مجموعة من الطلاب في كلية الآداب و العلوم بني وليد بتحقيق الأجزاء.

15- القرآن الكريم العظيم هدايته و إعجازه, محمد الصادق عرجون, دار القلم

الدار الشامية بيروت, ط 1410/1989م.

16- القرآن و الصورة البيانية, عبد القـادر حسـين , دار المنار القـاهرة, ط الأولى 1412هـ/1991م.

17- الكشاف عن حقـائق التنزيل و عيون الأقـاويل في وجوه التأويل, تأليف: أبي القاسم جار الله الزمخشري, دار المعرفة بيروت، د ت.

18- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية, تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد, دار الكتب العلمية بيروت, ط الأولى 1413 هـ/1993 م.

19- مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي, طبعة جديدة, دراسة و تقديم: عبد الفتاح البركاوي, دار المنار, د ت.

20- المعجزة الكبرى القرآن, محمد أبو زهرة, دار الفكر العربي 1390 هـ/ 1970.

21- النكت ضمن: ثلاث رسائل في أعجاز القرآن للرّماني و الخطّابي و عبـد القـاهر الجرجاني, تحقـيق و تعليق: محمد خلف الله أحمد, و محمد زغلول سـلام, دار المعارف القاهرة, د ت.